وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المحاضرة الحادية عشرة: الوزن الشعري، قيمته المعنوية وصلته بالإيقاع

لقد سبق أن رأينا في حديث لحازم تلميحا عن خواص الأوزان يصطلح على تسميتها بالجعودة والسباطة، أو السهولة والوعورة وغيرها، تحصل من طبيعة انتظام الأصوات زمانيا في إيقاع، وعددها، ونسبة بعضها إلى بعض، وغير ذلك من خصائص صوتية وإيقاعية. هذه الخصائص في كل وزن تعطيه تمايزا عن غيره، وبالتالي تشحنه إيقاعيا بمعنى قبلي أو طاقة تعبيرية ينبغي أن تعتمد في عملية الإبداع الشعري عبر اختيار الوزن الملائم، إذ من غير المعقول الغرض رصينا وجادا، ويكتسي بوزن صفاته السباطة والليونة: "ولما كانت أغراض الشعر شتى، وكان منها ما يقصد الجد والرصانة، وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم، وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك القصائد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس. فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا، وقصد تحقير شيء أو العبث به، حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء... وهذا الذي ذكرته من تخييل الأغراض بالأوزان قد نبه عليه ابن سينا في غير موضع من كتبه"[1]. ويتمادى حازم في بحث خصائص الأوزان المستقلة إلى تحديد صفات كل وزن، فيقرر أن: "العروض الطويل تجد فيه أبدا بهاء وقوة، وتجد للبسيط سباطة وطلاوة، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد، وللخفيف جزالة ورشاقة، وللمتقارب سباطة وسهولة، وللمديد رقة ولينا مع رشاقة، وللرمل لينا وسهولة"[2].

والحق أن هذا الإقرار بخاصية الوزن المستقلة، وطبيعته الموسيقية المشحونة بطاقة تعبيرية عائدة إلى خصائصه الصوتية التي تهب الوزن استقلالا، والتي ينبغي أن تراعى في الإبداع عبر التقابل بين الغرض والوزن، تعود إلى الفلاسفة. فقد رسخ في أذهانهم ضرورة المقابلة بين الوزن والغرض. يرى ابن سينا وهو يعدد عناصر الطراغوذيا: "والرابع: المقابلة، وهو أن يجعل للغرض المفسر وزنا يقول به، ويكون ذلك الوزن مناسبا إياه. وأن تكون التغييرات الجزئية بذلك الوزن تليق به، فرب شيء يليق به الطي في غرض، وفي غرض آخر يليق به التلصيق، وهما فعلان يتعلقان بالإيقاع يستعملهما"[3].

---

[1] - جابر عصفور: مفهوم الشعر، ص 266.

[2] - المرجع نفسه، ص 269.

[3] - ابن سينا: فن الشعر، ص 180.

ومع أن ابن سينا يقر بأن الوزن الواحد قد تلحقه الزحافات والعلل ليلائم موضوعا، قد لا تطرأ بنفس الكيفية في موضع آخر، إلا أن ضرورة اختيار الوزن المناسب للغرض الملائم تبدو كالقاعدة في تفكيره. ويحذو حذوه ابن رشد في تقرير نفس الحقيقة، فالوزن: "من تمامه أن يكون مناسبا للغرض، فرب وزن يناسب غرضا ولا يناسب غرضا آخر"[4]. والواقع أن هذه القاعدة رسخت في أذهان الفلاسفة لما تصوروه من ملائمة اليونان بين أغراضهم الشعرية المحدودة وأوزان محدودة، فكانوا يختارون لكل غرض ما يوافقه من وزن، يقول ابن سينا: "واليونانيون كانت لهم أغراض محدودة يقولون فيها الشعر، وكانوا يخصون كل غرض بوزن على حد"[5]. وتعرض أرسطو في حديثه عن الأشعار اليونانية الموضوعة للأوزان الملائمة لكل نوع، فما يلائم الملحمة لا يتوافق والتراجيديا، والمسألة قد تكون مبررة في الشعر اليوناني، فما يتوافق والملحمة باعتبارها تقوم أساسا على السرد، قد لا ينسجم مع التراجيديا التي تقوم على الحوار الذي يتطلب سرعة وخفة. غير أن المسألة مغايرة في الشعر العربي، حيث لا يسقط تنوع أغراضه ارتباطه أساسا بأنا الشاعر.

---

[4] - ابن رشد: كتاب الشعر، ص 211.

[5] - ابن سينا: فن الشعر، ص 165.